اسْمُ الْمَادَّةِ

الْعَقِيدَةُ

الدَّرْسُ الرَّابِعُ مِنْ:

شَرْحِ (أُصُولُ السُّنَّةِ)

مُؤَلِّفُ الْمَتْنِ:

الْإِمَامُ / أَحْمَدُ بْنُ مُحَمَّدِ بْنِ حَنْبَلٍ –رَحِمَهُ اللهُ–

اسْمُ الشَّارِحِ:

فَضِيلَةُ الشَّيْخ الدُّكْتُور/أَحْمَدَ بْنِ عُمَرَ بَازمُول –حَفِظَهُ اللهُ–

تَحْتَ إِشْرَافِ:

فَرِيقِ عَمَلِ مَعْهَدِ الْمِيرَاثِ النَّبَوِيِّ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُمْ مُسْلِمُونَ﴾.

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا* يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾.

أَلَا وَإِنَّ أَصْدَقَ الْكَلَامِ كَلامُ اللهِ، وَخَيْرَ الْهُدَى هُدَى مُحَمَّدٍ، وَشَرَّ الْأُمُورِ مُحْدَثَاتُهَا، وَكُلَّ مُحْدَثَةٍ بِدْعَةٌ، وَكُلَّ بِدْعَةٍ ضَلالَةٌ، وَكُلَّ ضَلالَةٍ فِي النَّارِ.

أَمَّا بَعْدُ:

[........]

فَلاَبُدَّ مِنَ الإِيمَانِ بِمَرْتَبَةِ الْمَشِيئَةِ، وَدَرَجَةِ الْمَشِيئَةِ، وَأَنَّكَ يَا عَبْدَ اللهِ لَكَ اخْتِيَارٌ وَإِرَادَةٌ وَمَشِيئَةٌ؛ وَلَكِنَّ هَذِهِ الإِرَادَةُ وَالْمَشِيئَةُ هِيَ تَحْتَ مَشِيئَةِ اللهِ -عَزَّ وَجَلَّ-، فَلَيْسَ لَكَ أَنْ تَفْعَلَ شَيْئًا فِي هَذَا الْكَوْنِ لَمْ يُرِدْهُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ.

وَلاَ يَلْزَمُ مِنْ مَشِيئَةِ اللهِ -عَزَّ وَجَلَّ- وَإِرَادَتِهِ أَنَّكَ -يَا عَبْدَ اللهِ- تَكُونُ مَجْبُورًا عَلَى فِعْلِ أَمْرٍ؛ لِأَنَّ اللهَ، -عَزَّ وَجَلَّ- مَعَ مَشِيئَتِهِ وَإِرَادَتِهِ أَعْطَاكَ الإِرَادَةَ وَالتَّخْيِيرَ.

كَمَا قَالَ اللهُ -عَزَّ وَجَلَّ-: ﴿لِمَن شَاءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ (28) وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ [التكوير: 28-29].

وَكَمَا قَالَ اللهُ -عَزَّ وَجَلَّ-: ﴿وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ﴾ [البلد: 10] أَيْ: طَرِيقَ الْخَيْرِ، وَطَرِيقَ الشَّرِّ.

فاللهُ -عَزَّ وَجَلَّ- بَيَّنَ لَنَا طَرِيقَ الْخَيْرِ، وَأَمَرَنَا بِسُلُوكِهِ، وَبَيَّنَ لَنَا طَرِيقَ الشَّرِّ، وَنَهَانَا وَحَذَّرَنَا مِنْ سُلُوكِهِ، فَمَنِ اخْتَارَ إِحْدَى الطَّرِيقَيْنِ فَإِنَّمَا اخْتَارَهَا بِإِرَادَتِهِ هُوَ، أَيْ بِإِرَادَةِ الإِنْسَانِ الذِي اخْتَارَ هَذَا الطَّرِيقَ.

فَإِذًا لاَ بُدَّ أَنْ نُؤْمِنَ بِالْمَشِيئَةِ وَالإِرَادَةِ، وَأَنْ نَعْلَمَ أَنَّ هَذِهِ الْمَشِيئَةَ للهِ – عَزَّ وَجَلَّ- لاَ يَلْزَمُ مِنْهَا أَنَّ الْعَبْدَ مُجْبَرٌ عَلَى فِعْلِ شَيْءٍ مَا؛ لِأَنَّ اللهَ -عَزَّ وَجَلَّ

قَدْ أَعْطَانَا التَّخْيِيرَ وَالِاخْتِيَارَ؛ فَمَنِ اسْتَقَامَ وَاهْتَدَى فَلِنَفْسِهِ، وَمَنْ ضَلَّ فَعَلَيْهَا.

وَهُنَا يُخْطِئُ كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ حِينَ يَظُنُّ أَنَّهُ لاَ إِرَادَةَ وَلاَ تَخْيِيرَ، وَأَنَّهُ مَجْبُورٌ عَلَى مَا يَفْعَلُهُ، وَهَذَا خَطَأٌ؛ لِأَنَّ الأَدِلَّةَ الشَّرْعِيَّةَ دَلَّتْ عَلَى أَنَّ كُلَّ مُكَلَّفٍ عِنْدَهُ اخْتِيَارٌ، وَعِنْدَهُ إِرَادَةٌ يَسْلُكُ مِنْ طَرِيقِهَا مَا يُرِيدُ.

ثُمَّ الْمَرْتَبَةُ الرَّابِعَةُ بَعْدَ الْعِلْمِ، مَرَّ مَعَنَا دَرَجَةُ الْعِلْمِ، وَدَرَجَةُ الْكِتَابَةِ، وَدَرَجَةُ الْمَشِيئَةِ، ثُمَّ الدَّرَجَةُ الرَّابِعَةُ دَرَجَةُ الْخَلْقِ، وَأَنَّ اللهَ -عَزَّ وَجَلَّ- خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ -سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى-، خَلَقَ الإِنْسَانَ وَخَلَقَ أَعْمَالَهُ مِنْ خَيْرٍ وَشَرٍّ كُلَّهَا.

أَعْمَالُ بَنِي آدَمَ مَخْلُوقَةٌ، واللهُ -عَزَّ وَجَلَّ- كَمَا أَخْبَرَنَا -سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى- عَنْ نَفْسِهِ، أَنَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ، ﴿اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ [الزمر: 62] فَلاَبُدَّ أَنْ نُؤْمِنَ بِهَذِهِ الْمَرْتَبَةِ، وَهَذِهِ الدَّرَجَةِ، وَأَنَّ الْعَبْدَ لاَ يَخْلُقُ عَمَلَهُ، وَإِنَّمَا اللهُ ،-عَزَّ وَجَلَّ- خَالِقُ كُلِّ صَانِعٍ وَصَنْعَتِهِ -سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى-، كَمَا جَاءَتْ فِي ذَلِكَ الرِّوَايَةُ وَالأَحَادِيثُ الصَّحِيحَةُ عَنِ النَّبِيِّ -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-.

إِذًا هَذِهِ هِيَ مَرَاتِبُ وَدَرَجَاتُ الإِيمَانِ بِالْقَدَرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ:

الْعِلْمُ: اللهُ -عَزَّ وَجَلَّ- يَعْلَمُ كُلَّ شَيْءٍ.

قَدْ يَقُولُ قَائِلٌ: طَيِّبٌ، اللهُ –عَزَّ وَجَلَّ– أَمَرَ الْقَلَمَ أَنْ يَكْتُبَ، فَكَتَبَ الْقَلَمُ مَا هُوَ كَائِنٌ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ، فَفِيمَ الْعَمَلُ؟!

الْجَوَابُ: كَمَا جَاءَ عَنِ النَّبِيِّ –صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ–: «**اعْمَلُوا فَكُلٌّ مُيَسَّرٌ لِمَا خُلِقَ لَهُ**».

وَأَيْضًا الْكِتَابَةُ فِي اللَّوْحِ الْمَحْفُوظِ هِيَ مِنْ عِلْمِ اللهِ –عَزَّ وَجَلَّ– بِمَا سَيَكُونُ، مِمَّا سَيَخْتَارُهُ الْعَبْدُ الْمُكَلَّفُ، وَمِمَّا سَيَقَعُ مِنْهُ.

فاللهُ –عَزَّ وَجَلَّ– حِينَ أَمَرَ الْقَلَمَ أَنْ يَكْتُبَ لَمْ يَأْمُرْهُ أَنْ يَكْتُبَ إِلاَّ بِمَا كَانَ فِي عِلْمِهِ –سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى–، وَعِلْمُ اللهِ –عَزَّ وَجَلَّ– مُحِيطٌ بِكُلِّ شَيْءٍ، فَاللهُ يَعْلَمُ مَثَلاً أَنَّنَا سَنَجْلِسُ فِي هَذَا الْيَوْمِ، فِي هَذَا اللِّقَاءِ فِي هَذِهِ السَّاعَةِ، كُلٌّ بِمَكَانِهِ، وَكُلٌّ بِحَالِهِ.

فاللهُ –عَزَّ وَجَلَّ– يَعْلَمُ كُلَّ شَيْءٍ –سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى–، قَبْلَ أَنْ نَجْتَمِعَ، وَقَبْلَ أَنْ نَجْلِسَ، وَقَبْلَ أَنْ نَتَكَلَّمَ أَوْ أَنْ نَسْمَعَ، اللهُ يَعْلَمُ هَذِهِ الأُمُورَ، أَنَّنَا سَنَفْعَلُهَا، وَأَنَّهَا سَتَقَعُ مِنَّا.

فَأَمَرَ اللهُ –عَزَّ وَجَلَّ– الْقَلَمَ أَنْ يَكْتُبَ مَا سَنَخْتَارُهُ وَمَا نَفْعَلُهُ، وَلَكِنْ لاَ يَسْتَطِيعُ الْعَبْدُ أَنْ يَتَحَدَّى اللهَ ،–عَزَّ وَجَلَّ– وَأَنْ يَقُولَ أَنَا سَأَفْعَلُ أَمْرًا، فِي

هَذَا الْكَوْنِ وَلَنْ يَمْنَعَنِي أَحَدٌ، مُتَحَدِّيًا اللهَ –عَزَّ وَجَلَّ–، فَإِنَّ اللهَ إِذَا لَمْ يُرِدْهُ لاَ يَقَعُ أَبَدًا مَهْمَا كَانَ.

وَمَهْمَا اجْتَمَعَتِ الإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَفْعَلُوا شَيْئًا لَمْ يُرِدْهُ اللهُ لاَ يَكُونُ، كَمْ حَاوَلَ الْكُفَّارُ، وَالْيَهُودُ وَالنَّصَارَى وَغَيْرُهُمْ قَتْلَ النَّبِيِّ –صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– فَلَمْ يَسْتَطِيعُوا قَتْلَهُ وَنَجَّاهُ اللهُ مِنْهُمْ.

وَكَمْ حَاوَلَ أَهْلُ الْبَاطِلِ إِزَالَةَ الْحَقِّ، وَمُحَارَبَةَ الْحَقِّ، وَقَتْلَ أَهْلِ الْحَقِّ، فَنَصَرَهُم اللهُ –عَزَّ وَجَلَّ– فَلَمْ يَسْتَطِيعُوا أَنْ يَفْعَلُوا شَيْئًا، فَإِنَّ اللهَ –عَزَّ وَجَلَّ– إِذَا لَمْ يُرِدْ شَيْئًا لاَ يَكُونُ.

فَلاَبُدَّ أَنْ نَعْلَمَ هَذَا، وَأَنْ نُؤْمِنَ بِهَذَا وَأَنْ نُؤْمِنَ أَنَّ الأُمُورَ بِقَدَرِ اللهِ –عَزَّ وَجَلَّ– تَجْرِي، وَأَنَّ قَدَرَ اللهِ –عَزَّ وَجَلَّ– لاَ يَلْزَمُ مِنْهُ أَنَّنَا مَجْبُورُونَ عَلَى هَذَا الأَمْرِ؛ لِأَنَّهُ كَمَا أَسْلَفْتُ لَكُمْ سَابِقًا قَدْ أَخبَرَنَا اللهُ –عَزَّ وَجَلَّ–، وَأَخْبَرَنَا النَّبِيُّ –صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– أَنَّ كُلَّ وَاحِدٍ مِنَّا لَهُ اخْتِيَارٌ، وَأَنَّهُ مَسْئُولٌ عَنْ هَذَا الِاخْتِيَارِ، وَأَنَّهُ مُحَاسَبٌ عَلَى اخْتِيَارِهِ مِنْ خَيْرٍ أَوْ شَرٍّ، وَأَنَّهُ أَرْسَلَ إِلَيْنَا الرُّسُلَ، وَأَنْزَلَ الْكُتُبَ، لِبَيَانِ طَرِيقِ الْخَيْرِ الذِي نَسْلُكُهُ، وَلِلتَّحْذِيرِ مِنْ طَرِيقِ الشَّرِّ الذِي نَبْتَعِدُ عَنْهُ، فَأَمَرَنَا بِالتَّوْحِيدِ وَبِطَاعَتِهِ، وَنَهَانَا عَنِ الشِّرْكِ وَمَعْصِيَتِهِ.

وَلِذَلِكَ الإِمَامُ أَحْمَدُ –رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى– جَعَلَ الإِيمَانَ بِالْقَدَرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ مِنْ أَوَائِلِ الأُصُولِ التِي يَجِبُ أَنْ نُؤْمِنَ بِهَا.

لِمَاذَا؟

لِأَنَّهُ وُجِدَ فِي عَصْرِهِ -بَلْ وَمِنْ قَبْلِ عَصْرِهِ- مَنْ يُنْكِرُ الْقَدَرَ، مَنْ يَقُولُ: إِنَّ اللهَ لاَ يَعْلَمُ بِالأُمُورِ وَبِالْحَوَادِثِ إِلاَّ بَعْدَ وُقُوعِهَا -تَعَالَى عَمَّا يَقُولُونَ- اللهُ -عَزَّ وَجَلَّ- لَهُ الصِّفَاتُ الْعُلْيَا وَالأَسْمَاءُ الْحُسْنَى وَلَهُ الْكَمَالُ -سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى- الْمُطْلَقُ مِنْ كُلِّ وَجْهٍ، فَعِلْمُهُ -سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بِمَا هُوَ كَائِنٌ، وَمَا سَيَكُونُ، وَمَا كَانَ هُوَ مِنْ صِفَاتِ الْكَمَالِ.

وَأَمَّا أَنْ نَقُولَ إِنَّ اللهَ لاَ يَعْلَمُ بِالشَّيْءِ إِلاَّ بَعْدَ وُقُوعِهِ، فَهَذَا أَوَّلاً مُخَالِفٌ لِلنُّصُوصِ الشَّرْعِيَّةِ، وَأَيْضًا مُخَالِفٌ لِلْمَعْنَى، فَإِنَّ الذِي لاَ يَعْلَمُ بِالشَّيْءِ إِلَّا بَعْدَ وُقُوعِهِ، هَذِهِ صِفَةُ نَقْصٍ لَيْسَتْ صِفَةَ كَمَالٍ، وَإِنَّمَا صِفَةُ الْكَمَالِ أَنْ يَعْلَمَ اللهُ -سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى- بِكُلِّ شَيْءٍ، فَتَعَالَى اللهُ عَمَّا يَقُولُونَ.

وَهُنَاكَ مَنْ يَقُولُ:

إِنَّ الإِنْسَانَ مَجْبُورٌ، يَعْنِي أَنَّهُ لاَ إِرَادَةَ لَهُ، وَأَنَّ اللهَ -عَزَّ وَجَلَّ- هُوَ الذِي جَعَلَهُ يَسْلُكُ هَذَا الطَّرِيقَ أَوْ هَذَا الطَّرِيقَ.

إِذَنْ أَيْنَ الْحِسَابُ؟!

وَأَيْنَ التَّكْلِيفُ؟!

فَإِنَّ النُّصُوصَ الشَّرْعِيَةَ دَلَّتْ عَلَى أَنَّ الْعَبْدَ مُكَلَّفٌ وَمُخَيَّرٌ وَمُحَاسَبٌ عَلَى هَذَا التَّكْلِيفِ وَالتَّخْيِيرِ. فَلاَ شَكَّ أَنَّ هَؤُلاَءِ عَارَضُوا الْحَقَّ وَالنُّصُوصَ الشَّرْعِيَةَ بِأَهْوَائِهِمْ.

سُبْحَانَ اللهِ!

اللهُ –عَزَّ وَجَلَّ– يُخْبِرُ عَنِ الْقَدَرِ وَأَنَّهُ –سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى– عَالِمٌ بِكُلِّ شَيْءٍ، وَمَعَ ذَلِكَ يُعَارِضُونَ هَذِهِ النُّصُوصَ الشَّرْعِيَةَ بِأَهْوَائِهِمْ وَعُقُولِهِمُ الْفَاسِدَةِ.

عَائِشَةُ –رَضِيَ اللهُ عَنْهَا– أُمُّ الْمُؤْمِنِينَ فِي قِصَّةِ الْمُجَادِلَةِ التِي أَتَتْ تَشْتَكِي إِلَى النَّبِيِّ –صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– حِينَ ظَاهَرَ مِنْهَا –حِينَ حَرَّمَهَا زَوْجُهَا عَلَى نَفْسِهِ– فَتَقُولُ عَائِشَةُ –رَضِيَ اللهُ عَنْهَا–: «**سُبْحَانَ الذِي وَسِعَ سَمْعُهُ كُلَّ شَيْءٍ**».

حِينَ أَنْزَلَ قَوْلَهُ: ﴿قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا ۚ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾ [المجادلة: 1] فاللهُ –سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى– مِنْ فَوْقِ سَبْعِ سَمَوَاتٍ قَدْ سَمِعَ كَلاَمَ هَذِهِ الْمَرْأَةِ، سَمِعَهُ كَامِلاً؛ لِأَنَّهُ قَالَ: ﴿قَدْ سَمِعَ اللَّهُ﴾، أَيْ قَدْ سَمِعَهُ كُلَّهُ –سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى– وَلَمْ يَفُتْهُ شَيْءٌ.

وَعَائِشَةُ –رَضِيَ اللهُ عَنْهَا– تَقُولُ: «**كُنْتُ أَسْمَعُ بَعْضَ الْكَلاَمِ، وَيَغِيبُ عَنِّي بَعْضُهُ**»، مَعَ أَنَّهَا كَانَتْ قَرِيبَةً مِنْ حُجْرَةِ النَّبِيِّ –صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ–.

وَأَيْضًا أَخْبَرَنَا النَّبِيُّ –صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– أَنَّهُ يَعْلَمُ كُلَّ شَيْءٍ حَتَّى أَوْرَاقَ الشَّجَرَةِ وَرَقَةً وَرَقَةً يَعْلَمُ بِهَا –سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى–، بَلْ يَسْمَعُ وَيَعْلَمُ –سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى– دَبِيبَ النَّمْلَةِ السَّوْدَاءِ، عَلَى الصَّخْرَةِ الصَّمَّاءِ، فِي اللَّيْلَةِ الظَّلْمَاءِ، فَلاَ يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي الأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ –سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى–.

فَلاَبُدَّ أَنْ نُؤْمِنَ بِهَذَا الأَمْرِ، وَلاَبُدَّ أَنْ نُسَلِّمَ لِلنُّصُوصِ الشَّرْعِيَّةِ الدَّالَّةِ عَلَى ذَلِكَ، وَأَنْ لاَ نَعْتَرِضَ عَلَى قَدَرِ اللهِ، وَأَنْ نَرْضَى بِمَا يُقَدِّرُهُ اللهُ –عَزَّ وَجَلَّ– عَلَيْنَا مِنْ مَصَائِبَ، كَمَا قَالَ النَّبِيُّ –صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– لابْنِ عَبَّاسٍ: «وَاعْلَمْ أَنَّ مَا أَصَابَكَ لَمْ يَكُنْ لِيُخْطِئَكَ، وَمَا أَخْطَأَكَ لَمْ يَكُنْ لِيُصِيبَكَ».

قَالَ الإِمَامُ أَحْمَدُ رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى–: «**الإِيمَانُ بِالْقَدَرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ، وَالتَّصْدِيقُ بِالأَحَادِيثِ فِيهِ، وَالإِيمَانُ بِهَا، لاَ يُقَالُ: لِمَ؟ وَلا: كَيْفَ؟، إِنَّمَا هُوَ الإِيمَانُ وَالتَّصْدِيقُ بِهَا**».

جَاءَتْ الأَحَادِيثُ فِي ذِكْرِ الْقَدَرِ؛ مِنْ ذَلِكَ قَوْلُ النَّبِيِّ –صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– فِي حَدِيثِ ابْنِ مَسْعُودٍ: «**إِنَّ أَحَدَكُمْ يُجْمَعُ خَلْقُهُ فِي بَطْنِ أُمِّهِ أَرْبَعِينَ يَوْمًا نُطْفَةً**»، إِذَا قَدَّرَ اللهُ أَنْ تَحْمِلَ يَكُونُ أَرْبَعِينَ يَوْمًا نُطْفَةً، «**ثُمَّ يَكُونُ أَرْبَعِينَ**

يَوْمًا عَلَقَةً مِثْلَ ذَلِكَ، ثُمَّ يَكُونُ مُضْغَةً مِثْلَ ذَلِكَ -أَيْ أَرْبَعِينَ يَوْمًا-، **ثُمَّ يُرْسَلُ إِلَيْهِ الْمَلَكُ، فَيُؤْمَرُ بِأَرْبَعِ كَلِمَاتٍ، بِكَتْبِ رِزْقِهِ وَأَجَلِهِ، وَعَمَلِهِ، وَشَقِيٌّ أَوْ سَعِيدٌ**».

هَذَا يُسَمَّى عِنْدَ أَهْلِ الْعِلْمِ **بِالتَّقْدِيرِ الْعُمُرِيِّ**، أَيْ تَقْدِيرِ عُمُرِ بَنِي آدَمَ.

وَهُنَاكَ التَّقْدِيرُ السَّنَوِيُّ، وَهُوَ التَّقْدِيرُ الذِي يَكُونُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ، كَمَا قَالَ اللهُ -عَزَّ وَجَلَّ-: ﴿إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُّبَارَكَةٍ ۚ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ (3) فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ﴾ [الدخان: 3-4]، وَهَذَا التَّقْدِيرُ السَّنَوِيُّ.

ثُمَّ التَّقْدِيرُ الْيَوْمِيُّ: مَا يَعْمَلُهُ ابْنُ آدَمَ فِي كُلِّ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ مِنْ عَمَلٍ.

فَهَذِهِ الأُمُورُ كُلُّهَا مُقَدَّرَةٌ، فَيَجِبُ الإِيمَانُ بِالنُّصُوصِ؛ لِأَنَّهَا وَحْيٌ مِنَ اللهِ -عَزَّ وَجَلَّ-، وَحَقٌّ مِنَ اللهِ -عَزَّ وَجَلَّ-، لاَ يُعْتَرَضُ عَلَيْهَا، وَلاَ يُخَاصَمُ فِي النُّصُوصِ كَمَا مَرَّ مَعَنَا، بَلْ يُسَلِّمُ لَهَا وَيُؤْمِنُ بِهَا.

لِمَاذَا؟!

أَوَّلا- كَمَا سَبَقَ-: لِأَنَّهَا وَحْيٌ وَيَقِينٌ مِنَ اللهِ -عَزَّ وَجَلَّ-.

وَثَانِيًا: لِأَنَّ عُقُولَنَا وَآرَاءَنَا نَاقِصَةٌ وَقَاصِرَةٌ عَنْ بُلُوغِ الْحَقِّ وَعَنْ إِدْرَاكِ حَقَائِقِ الأُمُورِ، فَاللهُ -عَزَّ وَجَلَّ- لَطِيفٌ خَبِيرٌ يَعْلَمُ بَوَاطِنَ الأُمُورِ، كَمَا يَعْلَمُ

ظَوَاهِرَهَا، وَلاَ يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ –سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى–، وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِقَدَرٍ وَبِتَقْدِيرٍ، فَالْوَاجِبُ عَلَيْنَا الإِيمَانُ بِهَذِهِ النُّصُوصِ وَعَدَمُ مُعَارَضَتِهَا.

وَمِنْ ذَلِكَ قَوْلُ النَّبِيِّ –صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ–: «**إِنَّ الرَّجُلَ لَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ النَّارِ، حَتَّى مَا يَكُونُ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ إِلاَّ ذِرَاعٌ فَيَسْبِقُ عَلَيْهِ الْكِتَابُ، فَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ الْجَنَّةِ فَيَدْخُلُهَا**» أَيْ يَدْخُلُ الْجَنَّةَ، «**وَإِنَّ الرَّجُلَ لَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ الْجَنَّةِ حَتَّى مَا يَكُونُ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ إِلاَّ ذِرَاعٌ فَيَسْبِقُ عَلَيْهِ الْكِتَابُ فَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ النَّارِ فَيَدْخُلُهَا**».

بَعْضُ النَّاسِ نَسْأَلُ اللهَ السَّلاَمَةَ وَالْعَافِيَةَ اعْتَرَضُوا عَلَى هَذِهِ الأَحَادِيثِ.

قَالُوا: **كَيْفَ يَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ الْجَنَّةِ ثُمَّ يُخْتَمُ لَهُ بِعَمَلِ أَهْلِ النَّارِ؟**

وَكَيْفَ يَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ النَّارِ، ثُمَّ يُخْتَمُ لَهُ بِعَمَلِ أَهْلِ الْجَنَّةِ؟!

فَنَقُولُ لِهَؤُلاَءِ: الْوَاجِبُ أَوَّلا أَنْ تُؤْمِنُوا بِهَذِهِ الأَحَادِيثِ، وَأَنَّهَا حَقٌّ مِنَ اللهِ –عَزَّ وَجَلَّ–: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ (3) إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ﴾ [النجم: 3-4].

ثُمَّ اعْلَمُوا –بَارَكَ اللهُ فِيكُمْ– أَنَّ هَذَا الْحَدِيثَ بَيَّنَتْهُ رِوَايَاتٌ أُخَرُ، فِيهَا أَنَّ النَّبِيَّ –صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– قَالَ: «**إِنَّ الرَّجُلَ لَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ الْجَنَّةِ فِيمَا يَظْهَرُ لِلنَّاسِ**».

أَيْ أَنَّ بَاطِنَهُ بِخِلاَفِ ظَاهِرِهِ، فَيَكُونُ مُرَائِيًا، وَيَكُونُ طَالِبًا لِلدُّنْيَا بِعَمَلِ الآخِرَةِ، وَغَيْرَ مُخْلِصٍ للهِ –عَزَّ وَجَلَّ–، فَهَذَا بِسَبَبِ هَذَا الْعَمَلِ وَهَذِهِ النِّيَّةِ الْفَاسِدَةِ قَدْ يُخْتَمُ لَهُ بِخَاتِمَةِ السُّوءِ.

أَسْأَلُ اللهَ أَنْ يَحْفَظَنِي وَإِيَّاكُمْ مِنْ خَاتِمَةِ السُّوءِ.

وَقَدْ يَعْمَلُ الرَّجُلُ بِعَمَلِ أَهْلِ النَّارِ مِنْ فِسْقٍ وَفُجُورٍ، وَلَكِنْ فِي قَلْبِهِ إِيمَانٌ، وَفِي قَلْبِهِ طَلَبٌ لِلْحَقِّ، وَفِي قَلْبِهِ شَيْءٌ مِنْ إِرَادَةِ الْخَيْرِ؛ مِثْلُ ذَاكَ الرَّجُلِ الذِي قَتَلَ تِسْعَةً وَتِسْعِينَ نَفْسًا.

فَسَأَلَ رَاهِبًا فَقَتَلَهُ فَكَمَّلَ بِهِ الْمِئَةَ، ثُمَّ بَعْدَ فَتْرَةٍ أَرَادَ أَنْ يَتُوبَ، فَسَأَلَ عَنْ أَعْلَمِ أَهْلِ الأَرْضِ، فَدَلُّوهُ عَلَى عَالِمٍ، فَبَيَّنَ لَهُ عَالِمٌ أَنَّ بَابَ التَّوْبَةِ مَفْتُوحٌ، وَلَكِنِ اذْهَبْ إِلَى الأَرْضِ الْفُلاَنِيَّةَ بِهَا قَوْمٌ صَالِحُونَ فَاعْبُدِ اللهَ مَعَهُمْ.

وَفِي طَرِيقِهِ لِتِلْكَ الأَرْضِ مَاتَ فَاخْتَصَمَتْ فِيهِ مَلاَئِكَةُ الرَّحْمَةِ وَمَلاَئِكَةُ الْعَذَابِ، فَمِنْ رَحْمَةِ اللهِ وَمِنْ فَضْلِهِ جَعَلَ قَبْضَهُ إِلَى مَلاَئِكَةِ الرَّحْمَةِ

فَقَبَضَتْهُ، مَعَ أَنَّهُ قَتَلَ مِائَةَ نَفْسٍ، وَفَجَرَ فِي الأَرْضِ وَطَغَى؛ وَلَكِنْ كَتَبَ اللهُ لَهُ التَّوْبَةَ وَهَيَّأَ اللهُ لَهُ أَسْبَابَهَا؛ لِأَنَّهُ –كَمَا فِي الْحَدِيثِ– أَنَّهُ أَرَادَ أَنْ يَتُوبَ.

إِذًا فِي دَاخِلِهِ إِرَادَةٌ لِلْخَيْرِ، بَحْثٌ عَنِ الْخَيْرِ، فَوَفَّقَهُ اللهُ لِذَلِكَ.

لِذَلِكَ إِخْوَانِي وَأَخَوَاتِي لاَبُدَّ أَنْ نُسَلِّمَ لِأَحَادِيثِ الْقَدَرِ، وَأَنْ نُؤْمِنَ بِهَا، وَأَنْ نَعْتَقِدَ أَنَّهَا حَقٌّ مِنَ اللهِ –عَزَّ وَجَلَّ–.

قَالَ الإِمَامُ أَحْمَدُ –رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى–: «**لاَ يُقَالُ: لِمَ؟ وَلاَ كَيْفَ؟**».

عَوِّدْ نَفْسَكَ يَا عَبْدَ اللهِ، عَوِّدِي نَفْسَكِ يَا أَمَةَ اللهِ، فَلْنُعَوِّدْ أَنْفُسَنَا وَقُلُوبَنَا وَعُقُولَنَا عَلَى التَّسْلِيمِ لِلأَدِلَّةِ الشَّرْعِيَّةِ، لِأَنَّهَا حَقٌّ وَيَقِينٌ، لاَ شَكَّ فِيهَا وَلاَ مِرْيَةَ وَلاَ اضْطِرَابَ، وَلْنُجَنِّبْ أَنْفُسَنَا مِثْلَ هَذِهِ الأَسْئِلَةِ: **لِمَ وَكَيْفَ**، اعْتِرَاضًا عَلَى الأَدِلَّةِ الشَّرْعِيَّةِ.

فَإِنَّ هَذَا لاَ يَجُوزُ.

بَلِ الْوَاجِبُ التَّسْلِيمُ، وَالْوَاجِبُ الإِذْعَانُ، وَالْوَاجِبُ الْقَبُولُ وَالاِنْقِيَادُ؛ وَلِذَلِكَ أَحْسَنَ الإِمَامُ أَحْمَد –رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى– حِينَ قَالَ: «**إِنَّمَا هُوَ التَّصْدِيقُ وَالإِيمَانُ بِهَا**».

يَعْنِي إِنَّمَا الْوَاجِبُ عَلَيْكَ يَا عَبْدَ اللهِ، وَعَلَيْكِ يَا أَمَةَ اللهِ، الْوَاجِبُ التَّسْلِيمُ وَالتَّصْدِيقُ، وَالإِيمَانُ بِهَا، فَهَذَا دَيْدَنُ وَعَمَلُ وَدَأْبُ أَهْلِ السُّنَّةِ أَنَّهُمْ يُسَلِّمُونَ لِلنُّصُوصِ الشَّرْعِيَّةِ وَلاَ يُعَارِضُونَهَا، وَلاَ يُجَادِلُونَ فِيهَا وَلا يُخَاصِمُونَ، وَبِذَلِكَ أُمِرْنَا جَمِيعًا أَنْ نَسْلُكَ طَرِيقَهُمْ وَهَدْيَهُمْ وَسُنَّتَهُمْ -رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ وَأَرْضَاهُمْ-.

قَالَ الإِمَامُ أَحْمَد -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى-: «**وَمَنْ لَمْ يَعْرِفْ تَفْسِيرَ الْحَدِيثِ وَيَبْلُغْهُ عَقْلُهُ، فَقَدْ كُفِيَ ذَلِكَ وَأُحْكِمَ لَهُ، فَعَلَيْهِ الإِيمَانُ بِهِ وَالتَّسْلِيمُ لَهُ**».

هَذِهِ قَاعِدَةٌ عَظِيمَةٌ مِنَ الإِمَامِ أَحْمَد، يُرَبِّينَا وَيُعَلِّمُنَا وَيُرْشِدُنَا لَهَا، وَهِيَ قَاعِدَةٌ مُتَلَقَّاةٌ عَنِ السَّلَفِ الصَّالِحِ، حَيْثُ آمَنُوا بِالنُّصُوصِ الشَّرْعِيَّةِ وَلَمْ يُعَارِضُوهَا، وَلَمْ يُجَادِلُوا فِيهَا، وَتَكَلَّمُوا بِمَا تَكَلَّمُوا فِيهِ عَنْ عِلْمٍ، وَوَقَفُوا فِيمَا وَقَفُوا فِيهِ بِبَصَرٍ نَافِذٍ، مَعَ قُدْرَتِهِمْ عَنِ الْكَلاَمِ وَالْخَوْضِ فِيهَا؛ وَلَكِنَّهُمْ أَمْسَكُوا عَنْ ذَلِكَ.

فَالإِمَامُ أَحْمَدُ -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى- يَقُولُ لِمَنْ لَمْ يَعْرِفْ تَفْسِيرَ الْحَدِيثِ وَيَبْلُغْهُ عَقْلُهُ مِمَّنْ جَاءَ بَعْدَ عَصْرِ السَّلَفِ الصَّالِحِ رِضْوَانُ اللهِ عَلَيْهِمْ، إِذَا لَمْ يَعْرِفْ تَفْسِيرَ الْحَدِيثِ وَلا مَعْنَاهُ بَعْدَ ثُبُوتِ الْحَدِيثِ، فَلْيُؤْمِنْ بِالْحَدِيثِ، وَلا يُعَارِضِ الْحَدِيثَ بِعَقْلِهِ.

لِمَاذَا؟!

لِأَنَّ عَقْلَهُ قَاصِرٌ، وَعَقْلَهُ ضَعِيفٌ، وَالنُّصُوصُ الشَّرْعِيَّةُ حَقٌّ وَيَقِينٌ، وَوَحْيٌ مِنَ اللهِ -عَزَّ وَجَلَّ-، فَإِذَا لَمْ يَبْلُغْهَا عَقْلُكَ، فَكَيْفَ يَخُوضُ فِيهَا وَيَتَكَلَّمُ فِيهَا؟

لِذَلِكَ قَالَ أَهْلُ الْعِلْمِ: مِنَ الْعِلْمِ السُّكُوتُ عَمَّا لاَ تَعْلَمُ، ومِنَ الْجَهْلِ الْخَوْضُ وَالْكَلاَمُ فِيمَا لَا تَعْلَمُ، فَقَدْ أَحْسَنَ مَنِ انْتَهَى إِلَى مَا قَدْ عَلِمَ.

فَإِذَا جَاءَكَ النَّصُّ الشَّرْعِيُّ وَلَمْ تَعْرِفْ تَفْسِيرَهُ وَشَرْحَهُ فَالْوَاجِبُ عَلَيْكَ الإِيمَانُ بِهِ وَالتَّصْدِيقُ وَالتَّسْلِيمُ لَهُ؛ فَقَدْ قَالَ الإِمَامُ أَحْمَد: «**فَقَدْ كُفِيَ ذَلِكَ، وَأُحْكِمَ لَهُ**».

يَعْنِي أَنَّ النُّصُوصَ الشَّرْعِيَّةَ وَمَنْهَجَ السَّلَفِ الصَّالِحِ حَصَلَ بِهِمَا إِحْكَامُ هَذِهِ الأُمُورِ، وَلَسْنَا بِحَاجَةٍ إِلَى عَقْلِكَ وَإِلَى فِكْرِكَ، وَإِلَى خَوْضٍ فِيمَا لا تَعْلَمُ، فَعَلَيْكَ يَا عَبْدَ اللهِ بِالإِيمَانِ بِهَا وَالتَّسْلِيمِ لَهَا.

قَالَ -رَحِمَهُ اللهُ-: «**مِثْلُ حَدِيثِ الصَّادِقِ الْمَصْدُوقِ**». يُشِيرُ إِلَى حَدِيثِ ابْنِ مَسْعُودٍ السَّابِقِ، فَإِنَّ هَذَا الْحَدِيثَ السَّابِقَ، فَإِنَّ هَذَا الْحَدِيثَ صَحِيحٌ، وَفِيهِ بَيَانِ أَطْوَارِ خَلْقِ بَنِي آدَمَ؛ أَنَّهُ يَكُونُ أَرْبَعِينَ يَوْمًا نُطْفَةً، ثُمَّ أَرْبَعِينَ يَوْمًا

عَلَقَةً، ثُمَّ أَرْبَعِينَ يَوْمًا مُضْغَةً، مَرَاحِلَ وَأَطوْارًا، وَإِنْ لَمْ نُشَاهِدْهَا بِأَعْيُنِنَا، وَإِنْ لَمْ نَعْلَمْ بِهَا وَنَرَاهَا؛ وَلَكِنَّهَا حَقٌّ فِي هَذَا التَّقْدِيرِ وَفِي هَذِهِ الْمَرَاحِلِ.

وَهَذَا مِنْ دَلَائِلِ صِدْقِ النَّبِيِّ –صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ–، وَأَنَّهُ رَسُولٌ مِنَ اللهِ –عَزَّ وَجَلَّ–، مَنِ الذِي أَعْلَمَهُ أَنَّ خَلْقَ الإِنْسَانِ، يَكُونُ أَوَّلَ خَلْقِهِ نُطْفَةً فِي هَذِهِ الْمُدَّةِ أَرْبَعِينَ يَوْمًا

.وَمَنِ الذِي أَعْلَمَهُ أَنَّهُ تَأْتِي عَلَيْهِ أَرْبَعِينَ أُخْرَى تَكُونُ فِيهِ عَلَقَةً

. وَمَنِ الذِي أَعْلَمَهُ أَنَّهُ بَعْدَ ذَلِكَ يَكُونُ مُضْغَةً، نُطْفَةً يَكُونُ مَنِيًّا، وَعَلَقَةً مِنْ دَمٍ، وَمُضْغَةً مِنْ لَحْمٍ، ثُمَّ يُؤْمَرُ بَعْدَ ذَلِكَ الْمَلَكُ.

ثُمَّ الْمَلَكُ يُؤْمَرُ وَيُرْسَلُ بِهَذِهِ الأُمُورِ الأَرْبَعِ:

❋ بِكِتَابَةِ رِزْقِهِ.

❋ وَأَجَلِهِ.

❋ وَعَمَلِهِ.

❋ وَشَقِيٌّ أَوْ سَعِيدٌ.

مَنِ الذِي أَعْلَمَ النَّبِيَّ –صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– بِذَلِكَ؟!

اللهُ –عَزَّ وَجَلَّ– أَوْحَى إِلَيْهِ بِذَلِكَ، فَأَخْبَرَنَا النَّبِيُّ –صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ–، وَالطِّبُّ الْحَدِيثُ يَقِفُ عَلَى هَذِهِ الْحَقَائِقِ، وَقَدْ أَخْبَرَنَا بِهَا النَّبِيُّ –صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– بِأَكْثَرِ مِنْ أَلْفٍ وَأَرْبَعِمَئَةِ سَنَةٍ، وَلَسْنَا بِحَاجَةٍ إِلَى الطِّبِّ الْحَدِيثِ؛ لِأَنَّنَا نُؤْمِنُ بِجَمِيعِ مَا جَاءَ بِهِ النَّبِيُّ –صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– إِيمَانًا ثَابِتًا رَاسِخًا لاَ شَكَّ فِيهِ وَلاَ اضْطِرَابَ.

ثُمَّ قَالَ الإِمَامُ أَحْمَدُ –رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى– : «**وَمِثْلُ مَا كَانَ مِثْلُهُ فِي الْقَدَرِ**»؛ يَعْنِي الأَحَادِيثَ الْوَارِدَةَ فِي الْقَدَرِ.

قَالَ الآجُرِّيُّ –رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى–: «إِنَّ سَائِلاً سَأَلَ عَنْ مَذْهَبِنَا فِي الْقَدَرِ، فَالْجَوَابُ فِي ذَلِكَ قَبْلَ أَنْ نُخْبِرَهُ بِمَذْهَبِنَا أَنَّا نَنْصَحُ السَّائِلَ وَنُعْلِمُهُ أَنَّهُ لاَ يَحْسُنُ بِالْمُسْلِمِينَ التَّنْقِيرُ وَالْبَحْثُ عَنِ الْقَدَرِ؛ لِأَنَّ الْقَدَرَ سِرٌّ مِنْ سِرِّ اللهِ –عَزَّ وَجَلَّ–، بَلِ الإِيمَانُ بِمَا جَرَتْ بِهِ الْمَقَادِيرُ مِنْ خَيْرٍ أَوْ شَرٍّ وَاجِبٌ عَلَى الْعِبَادِ أَنْ يُؤْمِنُوا بِهِ، ثُمَّ لاَ يَأْمَنُ الْعَبْدُ أَنْ يَبْحَثَ عَنِ الْقَدَرِ، فَيُكَذِّبَ بِمَقَادِيرِ اللهِ الْجَارِيَةِ عَلَى الْعِبَادِ فَيَضِلَّ عَنْ طَرِيقِ الْحَقِّ».

ثُمَّ قَالَ: «وَلَوْلا أَنَّ الصَّحَابَةَ –رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ– بَلَغَهُمْ عَنْ قَوْمٍ ضُلاَّلٍ، شَرَدُوا عَنْ طَرِيقِ الْحَقِّ، وَكَذَّبُوا بِالْقَدَرِ، فَرَدُّوا عَلَيْهِمْ قَوْلَهُمْ، وَكَفَّرُوهُمْ، وَكَذَلِكَ التَّابِعُونَ لَهُمْ بِإِحْسَانٍ، سَبُّوا مَنْ تَكَلَّمَ بِالْقَدَرِ وَكَذَّبَ بِهِ،

وَلَعَنُوهُمْ وَنَهَوْا عَنْ مُجَالَسَتِهِمْ، وَكَذَلِكَ أَئِمَّةُ الْمُسْلِمِينَ، يَنْهَوْنَ عَنْ مُجَالَسَةِ الْقَدَرِيَّةِ، وَعَنْ مُنَاظَرَتِهِمْ»، إِلَى آخِرِ كَلاَمِهِ –رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى–.

وَهَذَا يُصَدِّقُهُ قَوْلُ النَّبِيِّ –صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ–: «**إِذَا ذُكِرَ الْقَدَرُ فَأَمْسِكُوا**»؛ لاَ تَخُوضُوا، وَلاَ تُنَاقِشُوا، وَلاَ تُجَادِلُوا؛ بَلْ سَلِّمُوا وَآمِنُوا.

قَالَ: «**وَمِثْلُ أَحَادِيثِ الرُّؤْيَةِ كُلِّهَا**» يَعْنِي يَجِبُ الإِيمَانُ بِهَا، وَالتَّصْدِيقُ بِهَا وَالتَّسْلِيمُ لَهَا.

وَسَتَأْتِينَا إِنْ شَاءَ اللهُ مَسْأَلَةُ الرُّؤْيَةِ وَالأَحَادِيثُ الْوَارِدَةُ فِي ذَلِكَ، فَإِنَّ اللهَ –عَزَّ وَجَلَّ– لاَ يُرَى فِي الدُّنْيَا كَمَا قَالَ لِنَبِيِّهِ مُوسَى عَلَيْهِ الصَّلاَةُ وَالسَّلاَمُ لَمَّا سَأَلَهُ أَنْ يَرَاهُ، فَقَالَ لَهُ: ﴿لَن تَرَانِي﴾.

وَلَكِنْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَإِنَّ اللهَ –عَزَّ وَجَلَّ– يُرَى كَمَا يُرَى الْقَمَرُ لَيْلَةَ الْبَدْرِ، كَمَا أَخْبَرَ بِذَلِكَ اللهُ فِي كِتَابِهِ، وَأَخْبَرَ النَّبِيُّ –صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– بِذَلِكَ فِي سُنَّتِهِ، وَأَنَّنَا سَنَرَى رَبَّنَا –سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى– فِي الْجَنَّةِ.

أَسْأَلُ اللهَ الْعَظِيمَ رَبَّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ أَنْ يَجْعَلَنِي وَإِيَّاكُمْ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ النَّاظِرِينَ إِلَيْهِ –سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى–.

فَإِنَّ اللهَ لَمَّا قَالَ: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ [يونس: 26] فَسَّرَ النَّبِيُّ –صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– هَذِهِ الزِّيَادَةَ فِي الْجَنَّةِ بِالنَّظَرِ إِلَيْهِ –سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى– وَكَذَلِكَ فَسَّرَهَا الصَّحَابَةُ –رِضْوَانُ اللهِ عَلَيْهِمْ أَجْمَعِينَ–.

فَهَذِهِ النُّصُوصُ حَقٌّ يَجِبُ الإِيمَانُ بِهَا، وَتَحْرُمُ مُعَارَضَتُهَا، وَالشَّكُّ فِيهَا، وَالسُّؤَالُ بِلِمَ وَكَيْفَ؛ لِأَنَّكَ يَا عَبْدَ اللهِ مَأْمُورٌ بِالإِيمَانِ بِهَا، وَكَمَا سَبَقَ وَتَقَرَّرَ مَعَنَا أَنَّ هَذِهِ النُّصُوصَ الشَّرْعِيَّةَ كُلَّهَا حَقٌّ وَيَقِينٌ كُلُّهَا حَقٌّ مِنْ عِنْدِ اللهِ –عَزَّ وَجَلَّ–، أَرْسَلَ بِذَلِكَ رَسُولَنَا الْكَرِيمَ –عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ.

ثُمَّ قَالَ الإِمَامُ أَحْمَد –رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى–: «**وَإِنْ نَبَتْ –يَعْنِي بَعُدَتْ عَنِ الأَسْمَاعِ– وَاسْتَوْحَشَ مِنْهَا الْمُسْتَمِعُ، وَإِنَّمَا عَلَيْهِ الإِيمَانُ بِهَا، وَأَنْ لاَ يَرُدَّ مِنْهَا حَرْفًا وَاحِدًا، وَغَيْرِهَا مِنَ الأَحَادِيثِ الْمَأْثُورَاتِ عَنِ الثِّقَاتِ، وَأَلَّا يُخَاصِمَ أَحَدًا وَلاَ يُنَاظِرُهُ، وَلاَ يَتَعَلَّمُ الْجِدَالَ، فَإِنَّ الْكَلاَمَ فِي الْقَدَرِ وَالرُّؤْيَةِ وَالْقُرْآنِ وَغَيْرِهَا مِنَ السُّنَنِ مَكْرُوهٌ وَمَنْهِيٌّ عَنْهُ**».

هَذَا أَصْلٌ عَظِيمٌ، يَقُولُ الإِمَامُ أَحْمَدُ –رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى–: هُنَاكَ مِنَ النَّاسِ، مِمَّنْ قَدْ يَكُونُ فِي نَفْسِهِ شَيْءٌ مِنَ الدَّغَلِ، أَوْ شَيْءٌ مِنْ عَدَمِ الإِيمَانِ الْكَامِلِ، فَإِنْ سَمِعَ بَعْضَ النُّصُوصِ الشَّرْعِيَّةِ الْوَارِدَةِ فِي الْقَدَرِ وَالْوَارِدَةُ فِي رُؤْيَةِ اللهِ –عَزَّ وَجَلَّ–، قَالَ كَيْفَ، أَوْ مَا هَذَا، أَوْ أَيُعْقَلُ أَنَّ هَذَا حَدِيثٌ؟!

فَنَقُولُ لِهَؤُلاَءِ:

اتَّقُوا اللهَ فِي أَنْفُسِكُمْ، وَآمِنُوا بِمَا قَالَهُ اللهُ، وَقَالَهُ رَسُولُهُ –صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ–، وَأَيُّ نَصٍّ شَرْعِيٍّ مِنْ أَقْوَالِ النَّبِيِّ –صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– إِنْ اسْتَوْحَشَتْهُ نفسُكَ بِمَعْنَى لَمْ تُسَلِّمْ أَوْ تَنْقَدْ لَهُ أَوْ حَصَلَ فِي سَمْعِكَ شَيْءٌ مِنَ الإِشْكَالِ، فَالْوَاجِبُ عَلَيْكَ أَنْ لاَ تَسْتَمِرَّ فِي هَذَا الإِشْكَالِ وَفِي هَذَا الاِضْطِرَابِ؛ بَلْ تَقُولُ آمَنْتُ باللهِ وَرَسُولِهِ، وَتُسَلِّمُ للهِ وَرَسُولِهِ، وَلاَ تُعَارِضُ مَا جَاءَ فِي سُنَّةِ الرَّسُولِ –صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ–، أَوْ مَا أَخْبَرَ بِهِ اللهُ –عَزَّ وَجَلَّ– فِي كِتَابِهِ.

قَالَ الإِمَامُ أَحْمَدُ: «**إِنَّمَا عَلَيْهِ الإِيمَانُ بِهَا**»، هَذِهِ الْقَاعِدَةُ الْعَظِيمَةُ، التِي يَجِبُ عَلَى كُلِّ مُسْلِمٍ وَمُسْلِمَةٍ أَنْ يَقِفُوا عِنْدَهَا، وَأَنْ يَمْتَثِلُوهَا، الإِيمَانُ بِالنُّصُوصِ الشَّرْعِيَّةِ.

وَكَمْ رَأَيْنَا، وَكَمْ سَمِعْنَا، عَبْرَ وَسَائِلِ الإِعْلاَمِ، وَالْقَنَوَاتِ الْفَضَائِيَّةِ، مَنْ يَأْتِي وَيُعَارِضُ النُّصُوصَ الشَّرْعِيَّةَ بِعَقْلِهِ، وَيُكَذِّبُ وَيُجَادِلُ بِهَا، حَالُهُ حَالُ الْفَلاَسِفَةِ الْمُكَذِّبِينَ بِالنُّصُوصِ الشَّرْعِيَّةِ، وَلاَ يَلِيقُ بِالمُسْلِمِ أَنْ يُعَارِضَ النُّصُوصَ الشَّرْعِيَّةَ، وَلاَ يَلِيقُ بِالْمُسْلِمِ أَنْ يَتَّبِعَ هَوَاهُ، فَإِنَّهُ يَضِلُّ وَيَنْحَرِفُ عَنِ الْحَقِّ، وَإِنَّمَا الْوَاجِبُ عَلَى الْمُسْلِمِ الإِيمَانُ بِهَذِهِ النُّصُوصِ الشَّرْعِيَّةِ.

مَا مَوْقِفُنَا مِنَ الذِينَ يَخُوضُونَ فِي النُّصُوصِ الشَّرْعِيَّةِ؟!

إِنَّ الْوَاجِبَ عَلَيْنَا أَنْ لاَ نَسْمَعَ لَهُمْ، وَأَنْ نَهْجُرَهُمْ، مَا مَرَّ مَعَنَا مِنْ كَلاَمِ الإِمَامِ أَحْمَدَ، وَأَنْ لاَ نَقْرَأَ فِي كُتُبِهِمْ، وَأَنْ لاَ نَقُولَ نَحْنُ نُرِيدُ أَنْ نَسْمَعَ كَلاَمَهُمْ لِنَفْهَمَ.

فَإِنَّ النَّبِيَّ –صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– رَأَى عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ –رَضِيَ اللهُ عَنْهُ– وَمَعَهُ صُحُفٌ مِنْ صُحُفِ أَهْلِ الْكِتَابِ فَقَالَ لِعُمَرَ –رَضِيَ اللهُ عَنْهُ–: «**أَمُتَهَوِّكُونَ**؟!!» يَعْنِي أَفِي شَكٍّ تَشُكُّونَ.

لِمَاذَا تَقْرَأُ فِي التَّوْرَاةِ أَوِ الإِنْجِيلِ؟

لِمَاذَا تَتَّبِعُ هَذِهِ الصُّحُفَ؟

«**لَقَدْ جِئْتُكُمْ بِهَا بَيْضَاءَ نَقِيَّةً**»، فَهَذَا عُمَرُ –رَضِيَ اللهُ عَنْهُ– الْجَبَلُ الشَّامِخُ فِي الْحَقِّ، الذِي لَهُ أَقْوَالُ الْوَحْيِ بِتَصْدِيقِهَا وَتَأْيِيدِهَا، وَالذِي إِذَا رَآهُ الشَّيْطَانُ سَالِكًا طَرِيقًا سَلَكَ طَرِيقًا آخَرَ، مِنْ قُوَّتِهِ فِي الْحَقِّ وَالإِيمَانِ وَمَعَ ذَلِكَ يُنْكِرُ عَلَيْهِ النَّبِيُّ –صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– قِرَاءَتَهُ فِي تِلْكَ الصُّحُفِ، وَهِيَ مُحَرَّفَةٌ مُبَدَّلَةٌ، فَكَيْفَ بِكُتُبِ أَهْلِ الضَّلاَلِ الْمَبْنِيَّةِ عَلَى تَحْرِيفِ النُّصُوصِ الشَّرْعِيَّةِ مِنَ الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ؟!

وَلِذَلِكَ الإِمَامِ أَحْمَدُ –رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى– كَمَا مَرَّ مَعَنَا يُحَذِّرُنَا مِنْ أُولَئِكَ الأَشْرَارِ أَهْلِ الْبِدَعِ وَالضَّلاَلِ وَالاِنْحِرَافِ عَنِ الْحَقِّ.

فَإِنْ قَالَ قَائِلٌ: الْيَهُودِيَةُ وَالنَّصْرَانِيَّةُ هَلْ هِيَ أَدْيَانٌ مِنْ عِنْدِ اللهِ؟

فَالْجَوَابُ: نَعَمْ هِيَ أَدْيَانُ مِنْ عِنْدِ اللهِ –عَزَّ وَجَلَّ–؛ الْيَهُودِيَةُ أَتْبَاعُ مُوسَى، وَالنَّصْرَانِيَّةُ أَتْبَاعُ عِيسَى، وَإِبْرَاهِيمُ –عَلَيْهِ الصَّلاَةُ وَالسَّلاَمُ– قَبْلَهُمَا، وَلِذَلِكَ قَالَ اللهُ –عَزَّ وَجَلَّ–: ﴿مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾[آل عمران: 67] .

لَكِنْ نَقُولُ: إِنَّ الْيَهُودِيَةَ وَالنَّصْرَانِيَّةُ أَدْيَانٌ مِنْ عِنْدِ اللهِ مَنْسُوخَةٌ بِهَذَا الدِّينِ –الإِسْلاَمُ–؛ ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [آل عمران: 85] ، ﴿إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ﴾ [آل عمران: 19].

فَالْيَهُودِيَةُ وَالنَّصْرَانِيَّةُ هِيَ أَدْيَانٌ حَقٌّ قَبْلَ بَعْثَةِ النَّبِيِّ –صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ–؛ وَلَكِنْ بَعْدَ بِعْثَةِ النَّبِيِّ –صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– فَلاَ يَسَعُ يَهُودِيًّا وَلا نَصْرَانِيًّا إِلاَّ اتِّبَاعُ النَّبِيِّ –صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ–.

بَلْ لَوْ مُوسَى –عَلَيْهِ الصَّلاَةُ وَالسَّلاَمُ– كَانَ حَيًّا لَمَا وَسِعَهُ إِلاَّ اتِّبَاعُ النَّبِيِّ –صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ–.

بَلْ عِيسَى – عَلَيْهِ الصَّلاَةُ وَالسَّلاَمُ– حِينَ يَنْزِلُ آخِرَ الزَّمَانِ فَيَقْتُلُ الدَّجَّالَ، فَإِنَّهُ يَحْكُمُ بِشَرِيعَةِ مُحَمَّدٍ –صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ–.

فَإِذَنْ –بَارَكَ اللهُ فِيكَمْ– نَبْتَعِدُ عَنْ كُلِّ مَا خَالَفَ الْحَقَّ، وَنَبْتَعِدُ عَنْ أَهْلِ الْبِدَعِ وَالضَّلاَلِ وَالاِنْحِرَافِ.

قَالَ الإِمَامُ أَحْمَد –رَحِمَهُ الله تَعَالَى–: «**وَأَنْ لاَ يَرُدَّ مِنْهَا حَرْفًا**».

يَعْنِي حَرْفًا وَاحِدًا أَوْ كَلِمَةً أَوْ جُمْلَةً مِمَّا جَاءَ بِهِ النَّبِيُّ –صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– لا تُرَدُّ، وَمَنْ رَدَّهَا فَإِنَّهُ ضَلَّ وَانْحَرَفَ، وَاتَّبَعَ هَوَاهُ، وَيَتَرَدَّى فِي سُبُلِ الْبَاطِلِ.

قَالَ: «**وَغَيْرِهَا مِنَ الأَحَادِيثِ الْمَأْثُورَاتِ عَنِ الثِّقَاتِ**».

يَعْنِي كُلُّ حَدِيثٍ جَاءَ بِهِ النَّبِيُّ –صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– فَإِنَّنَا نُؤْمِنُ بِهِ وَلاَ نُجَادِلُ وَلَا نُعَارِضُ وَنُسَلِّمُ لَهُ، مَا دَامَ أَنَّهَا أَحَادِيثُ صَحِيحَةٌ، جَاءَتْ مِنَ الطُّرُقِ الصَّحِيحَةِ وَالطَّرُقِ الْمَقْبُولَةِ عِنْدَ أَهْلِ الْعِلْمِ، فَإِنَّ الْوَاجِب الإِيمَانُ بِهَا وَالتَّصْدِيقُ بِهَا وَالتَّسْلِيمُ لَهَا.

قَالَ: «**وَأَنْ لاَ يُخَاصِمَ أَحَدًا**».

لَوْ جَاءَكَ يَا عَبْدَ اللهِ أَحَدٌ يُجَادِلُكَ وَيُنَاظِرُكَ فِي النُّصُوصِ الشَّرْعِيَّةِ فَلاَ تُجَادِلْهُ؛ كَانَ الإِمَامُ مَالِكٌ وَغَيْرُهُ مِنَ السَّلَفِ يَقُولُونَ: «**أَخْبِرْ بِالسُّنَّةِ وَلا تُجَادِل**»؛ يَعْنِي إِذَا لَمْ يُسَلِّمْ لِلسُّنَّةِ فَلَنْ يُسَلِّمَ لَكَ.

وَهُنَا لاَ مَانِعَ أَنْ أُذَكِّرَ بِقَضِيَّةٍ مُهِمَّةٍ، وَهِيَ أَنَّ الشَّيْطَانَ أَوْ بَعْضَ مَنْ فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ قَدْ يَقُولُ: لِمَاذَا لاَ نُجَادِلُ وَنَحْنُ عَلَى الْحَقِّ؟

لِمَاذَا لاَ نُبَيِّنُ أَنَّ هَذَا هُوَ الْحَقُّ؟

فَالْجَوَابُ مِنْ وُجُوهٍ:

الْوَجْهُ الأَوَّلُ: أَنَّنَا هَذَا الذِي أُمِرْنَا بِهِ شَرْعًا؛ أَنَّهُ إِذَا رَأَيْنَا يَخُوضُونَ فِي آيَاتِ اللهِ أَنْ لاَ نَخُوضَ مَعَهُمْ، وَهَذَا الذِي أَمَرَنَا بِهِ النَّبِيُّ –صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– حِينَ قَالَ: «**فَإِذَا رَأَيْتُم الذِينَ يَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ فَأُولَئِكَ الذِينَ سَمَّى اللهُ فَاحْذَرُوهُمْ**».

وَأَيْضًا: السَّلَفُ الصَّالِحُ كَانُوا يَنْهَوْنَ عَنْ ذَلِكَ.

وَأَيْضًا: هُوَ إِذَا لَمْ يُسَلِّم لِلأَحَادِيثِ وَالنُّصُوصِ الشَّرْعِيَّةِ هَلْ سَيُسَلِّمُ لَكَ؟!!

وَأَيْضًا : أَنْتَ لاَ تَأْمَنُ عَلَى نَفْسِكَ، إِذَا جَادَلْتَهُ وَخَاصَمْتَهُ أَنْ تَنْتَقِلَ إِلَى قَوْلِه الْبَاطِلِ، وَإِلَى مَذْهَبِهِ الْعَاطِلِ، وَهَذَا مَا نَبَّهَ عَلَيْهِ جَمَاعَةٌ مِنْ أَئِمَّةِ السَّلَفِ وَمِنْ عُلَمَاءِ السُّنَّةِ كَابْنِ بَطَّةَ، وَغَيْرِهِ؛ يَقُولُ: «**كَانَ هُنَاكَ أُنَاسٌ مِنْ أَهْلِ السُّنَّةِ جَلَسُوا مَعَ أُنَاسٍ مِنْ أَهْلِ الْبِدْعَةِ عَلَى سَبِيلِ النُّصْحِ وَالْمُنَاصَحَةِ فَمَا لَبِثُوا أَن انْتَقَلُوا إِلَى مَذْهَبِهِمْ**».

فَالْمُسْلِمُ يَحْرِصُ عَلَى نَفْسِهِ، وَحِفْظِ دِينِهِ، وَحِفْظِ السُّنَّةِ التِي عِنْدَهُ، فَلا يُجَالِسُ هَؤُلاَءِ وَلا يُخَاصِمُهُمْ وَلاَ يُجَادِلُهُمْ.

قَالَ الإِمَامُ أَحْمَد –رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى–: «**وَأَلَّا يُخَاصِمَ أَحَدًا، وَلاَ يُنَاظِرَهُ، وَلاَ يَتَعَلَّمَ الْجِدَالَ**».

الْجِدَالُ لَيْسَ مُرَغَّبًا فِيهِ إِلاَّ فِي حَالٍ مَخْصُوصَةٍ، مِنْ بَابِ إِقَامَةِ الْحَقِّ، لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يَصِلَ لِلْحَقِّ، وَأَمَّا مَنْ عَلِمْنَا مِنْهُ الْمُعَانَدَةَ والإِصْرَارَ وَالْمُكَابَرَةَ فَإِنَّنَا لاَ نُجَادِلُهُ، وَإِنَّمَا نُجَادِلُ بِالتِي هِيَ أَحْسَن بِالأَدِلَّةِ الشَّرْعِيَّةِ.

وَأَمَّا الْجِدَالُ بِالْعَقْلِ وَالآرَاءِ، وَالْجِدَالُ فِي النُّصُوصِ الشَّرْعِيَّةِ والْمُخَاصَمَةِ عَلَيْهَا فَإِنَّ هَذَا أَمْرٌ غَيْرُ مَشْرُوعٍ.

قَالَ الإِمَامُ أَحْمَد –رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى–: «**فَإِنَّ الْكَلاَمَ فِي الْقَدَرِ وَالرُّؤْيَةِ وَالْقُرْآنِ وَغَيْرِهَا مِنَ السُّنَنِ مَكْرُوهٌ**»؛ أَيْ مُحَرَّمٌ.

لِأَنَّ الْكَرَاهَةَ عَلَى نَوْعَيْنِ:

*** كَرَاهَةٌ تَنْزِيهِيَّةٌ.**

*** وَكَرَاهَةٌ تَحْرِيمِيَّةٌ.**

فَالْمُرَادُ بِهَا الْكَرَاهَةُ التَّحْرِيمِيَّةُ؛ لِأَنَّهُ قَالَ: «**وَمَنْهِيٌّ عَنْهُ**».

أَمَا قَالَ اللهُ -عَزَّ وَجَلَّ-: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ﴾ [الإسراء: 36]، فاللهُ نَهَانَا عَنْ ذَلِكَ، عَنِ الْخَوْضِ فِي أَمْرٍ لاَ عِلْمَ لَنَا فِيهِ أَوْ بِهِ، بَلْ نُؤْمِنُ بِالنُّصُوصِ الشَّرْعِيَّةِ كَمَا سَبَقَ، وَكَمَا فِي الْحَدِيثِ السَّابِقِ: «**إِذَا ذُكِرَ الْقَدَرُ فَأَمْسِكُوا**».

قَالَ الإِمَامُ أَحْمَدُ: «**لاَ يَكُونُ صَاحِبُهُ مِنْ أَهْلِ السُّنَّةِ، حَتَّى يَدَعَ الْجِدَالَ وَيُسَلِّمَ وَيُؤْمِنَ بِالآثَارِ**».

أَقُولُ: هَذَا مِنَ الإِمَامِ أَحْمَدَ قَاعِدَةٌ عَظِيمَةٌ تُتَمِّمُ مَا سَبَقَ؛ وَهِيَ أَنَّنَا لا نُجَادِلُ بِالْعَقْلِ وَالآرَاءِ بِالْفَلْسَفَةِ، وَإِنَّمَا نُبَيِّنُ الْحَقَّ بِدَلِيلِهِ، وَبِالآثَارِ عَنِ الصَّحَابَةِ، وَبِمَا يُوَضِّحُ هَذَا الْحَقَّ، وَأَمَّا أَنْ نُجَادِلَ جِدَالا بِالْعَقْلِ وَبِالآرَاءِ، وَأَرَأَيْتَ كَذَا، وَإِنْ حَصَلَ كَذَا، وَإِنْ قُلْتَ كَذَا، فَإِنَّ هَذَا مَنْبُوذٌ.

قَالَ الإِمَامُ أَحْمَدُ: «**لاَ يَكُونُ صَاحِبُهُ**»؛ أَيْ لاَ يَكُونُ الْمُجَادِلُ وَالْمُتَعَلِّمُ لِلْجِدَالِ بِالْكَلاَمِ وَالْفَلْسَفَةِ وَالْكَلاَمِ الْعَقْلِيِّ، لاَ يَكُونُ صَاحِبُهُ مِنْ أَهْلِ السُّنَّةِ، وَإِنْ أَصَابَ بِكَلاَمِهِ السُّنَّةَ، يَعْنِي لَوْ قَرَّرَ مَسْأَلَةً بِالْعَقْلِ، وَبِالْجِدَالِ لاَ بِالطَّرِيقَةِ الشَّرْعِيَّةِ، وَكَانَ تَقْرِيرُهُ لِلْمَسْأَلَةِ صَحِيحًا، فَإِنَّهُ بِهَذِهِ الطَّرِيقَةِ لَيْسَ مِنْ أَهْلِ السُّنَّةِ.

لِمَاذَا لَيْسَ مِنْ أَهْلِ السُّنَّةِ؟

لِأَنَّهُ لَمْ يَسْلُكْ طَرِيقَ أَهْلِ السُّنَّةِ، وَلَمْ يَقْتَدِ بِالسَّلَفِ الصَّالِحِ، وَإِنَّمَا سَلَكَ طَرِيقَ الْخَلَفِ الذِينَ خَاصَمُوا وَجَادَلُوا وَخَاضُوا فِي الأَدِلَّةِ الشَّرْعِيَّةِ، بِغَيْرِ حَقٍّ شَرْعِيٍّ.

فَقَالَ: «**لَيْسَ مِنْ أَهْلِ السُّنَّةِ حَتَّى يَتْرُكَ الْجِدَالَ وَيسَلِّمُ وَيُؤْمِنُ بِالآثَارِ**».

وَلَعَلَّهُ قَدْ مَرَّ مَعَنَا دَلِيلٌ يُوَضِّحُ هَذَا؛ وَهُوَ مَا جَاءَ عَنِ النَّبِيِّ –صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– أَنَّهُ قَالَ: «**يَأْتِي الشَّيْطَانُ أَحَدَكُمْ فيَقُولُ: مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ، مَنْ خَلَقَ الأَرْضَ، مَنْ خَلَقَ كَذَا وَكَذَا؟!**» ، فَيَكُونُ الْجَوَابُ: «**اللهُ اللهُ اللهُ**»، أَيْ هُوَ الذِي خَلَقَ هَذِهِ الأُمُورَ، قَالَ: «**فَيَقُولُ الشَّيْطَانُ: فَمَنْ خَلَقَ اللهَ؟!**».

مَاذَا أَمرنَا النَّبِيُّ –صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ–؟!!

هَلْ أَمَرَنَا بِجِدَالِهِ وَالرَّدِّ عَلَيْه، وَإِسْكَاتِهِ، وَإِفْحَامِهِ، وَأَنَّنا عِنْدَنَا الْقُدْرَةُ عَلَى الرَّدِّ؟!!

لاَ، أَبَدًا؛ إِنَّمَا أَمَرَنَا أَنْ نَقُولَ: «**فَلْيَقُلْ: آمَنْتُ بِاللهِ وَرَسُولِهِ**»، وَفِي رِوَايَةٍ: «**آمَنْتُ بِاللهِ وَرُسُلِهِ**»، وَفِي رِوَايَةٍ: «**آمَنْتُ بِاللهِ**».

لاَحِظْ: «**آمَنْتُ**»؛ أَيْ آمَنْتُ بِالنُّصُوصِ الشرْعِيَّةِ، وَأَنَّ اللهَ هُوَ الْخَالِقُ لاَ خَالِقَ لَهُ –سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى–، وَأَنَّهُ –سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى– بِيَدِهِ الأُمُورُ كُلُّهَا، وَأَنَّهُ –سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى– وَاحِدٌ أَحَدٌ فَرْدٌ صَمَدٌ، فَنُؤْمِنُ بِهَذَا كُلِّهِ.

وَلاَ نَرُدُّ عَلَى الشَّيْطَانِ بِحَرْفٍ وَاحِدٍ، مَعَ قُدْرَتِنَا عَلَى الرَّدِّ عَلَيْهِ؛ وَلَكِنْ أَمَرَنَا النَّبِيُّ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- بِأَنْ لاَ نَرُدَّ عَلَيْهِ، وَأَنْ لاَ نَخُوضَ مَعَهُ؛ لِأَنَّ الشَّيْطَانَ بِوَسْوَسَتِهِ وَجِدَالِهِ قَدْ يُوصِلُ الإِنْسَانَ إِلَى الشَّكِّ فِي اللهِ –عَزَّ وَجَلَّ–، فَنَقْطَعُ هَذَا الْبَابَ مِنْ أَصْلِهِ.

فَلاَ نُجَادِلُ وَلاَ نُخَاصِمُ، وَلاَ نَفْتَحُ هَذَا الْبَابَ، لا مَعَ الشَّيْطَانِ وَلاَ مَعَ غَيْرِهِ، مِمَّنْ يَخُوضُ فِي الأَدِلَّةِ الشَّرْعِيَّةِ؛ أَمَا مَرَّ مَعَنَا مَا جَاءَ عَنْ أَيُّوبَ السَّخْتِيَانِي وَابْنِ سِيرِينَ وَغَيْرِهِمَا مِنَ السَّلَفِ لَمَّا جَاءَهُمْ مُبْتَدِعٌ أَرَادَ أَنْ يَقْرَأَ عَلَيْهِمْ آيَةً مِنْ كِتَابِ اللهِ فَرَفَضُوا، فَقَالَ لَهُ: «**قُمْ عَنِّي وَ لاَ نِصْفَ آيَةٍ مَا تَقْرَأْهَا عَلَيَّ**».

سُبْحَانَ اللهِ! آيَةٌ مِنْ كِتَابِ اللهِ يَرْفُضُ سَمَاعَهَا مِنَ الْمُبْتَدِعِ!!

فَقَالَ لَهُ تَلاَمِيذُهُ لِمَاذَا، وَهُوَ يُرِيدُ أَنْ يَقْرَأَ عَلَيْكَ آيَةً مِنْ كِتَابِ اللهِ؟!

وَتَأَمَّلُوا جَوَابَهُ بِدِقَّةٍ؛ قَالَ: «**خَشِيتُ أَنْ يُلَبِّسَ عَلَيَّ بِدْعَتَهُ، بِآيَةٍ يَنْتَزِعُهَا مِنْ كِتَابِ اللهِ**»؛ يَعْنِي أَنْ يَأْتِي بِآيَةٍ قَدْ يَدُلُّ ظَاهِرُهَا عَلَى مَعْنَى الْبِدْعَةِ التِي هُوَ عَلَيْهَا.

وَلِذَلِكَ عُمَرُ مَاذَا يَقُولُ –رَضِيَ اللهُ عَنْهُ–؟! «**جَادِلُوا أَهْلَ الْبِدَعِ بِالسُّنَنِ، وَلاَ تُجَادِلُوهُمْ بِالْقُرْآنِ**».

لِمَاذَا لاَ نُجَادِلُهُمْ بِالْقُرْآنِ؟!

لِأَنَّ السُّنَّةَ بَيَّنَتْ مَعَانِيَ الْقُرْآنِ، وَقَدْ تَأْتِي الآيَةُ فِي مَعْنَاهَا عَامٌّ، فَيَسْتَدِلُّ أَهلُ الْبَاطِلِ عَلَى هَذَا الْمَعْنَى الْعَامِّ، بَيْنَمَا السُّنَّةُ قَدْ بَيَّنَتْ وَقَيَّدَتْ هَذِهِ الْمَعَانِيَ الْعَامَّةَ.

فَمِنْ هُنَا قَالَ اللهُ –عَزَّ وَجَلَّ–: ﴿هُوَ الَّذِي أَنزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُّحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ﴾ [آل عمران: 7].

يَعْنِي سُبحان أن بَعْضَ الآيَاتِ قَدْ يَكُونُ فِيهَا مَعْنَى يَتَمَسَّكُ بِهِ أَهْلُ الْبَاطِلِ، فَبَيَّنَ اللهُ –عَزَّ وَجَلَّ– أَنَّ أَهْلَ الزَّيْغِ يَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ.

لِمَاذَا؟

لِلْفِتْنَةِ وَلِحَمْلِ مَعْنَى الآيَةِ عَلَى هَوَاهُمْ، فَقَالَ –عَزَّ شَأْنُهُ–: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ﴾ [آل عمران: 7].

وَأَمَّا الذِينَ آمَنُوا مَا مَوْقِفُهُمْ؟ ﴿وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ﴾ [آل عمران: 7].

قَدْ يَقُولُ قَائِلٌ لِمَاذَا فِي الْقُرْآنِ آيَاتٌ مُتَشَابِهَةٌ؟!!

فَالْجَوَابُ:

أَنَّ هَذَا مِنْ بَابِ الِابْتِلاَءِ وَالِاخْتِبَارِ، وَمِن بَابِ رَفْعِ الدَّرَجَاتِ لِلمُؤْمِنِينَ حِينَ يُسَلِّمُ وَيُؤْمِنُ بِهَذِهِ الآيَاتِ وَيَرْجِعُونَ فِيهَا إِلَى الْمُحْكَمِ، وَلا يَتَّبِعُونَ فِيهَا هَوَاهُمْ، فَإِنَّ النَّبِيَّ - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- وَأَصْحَابَهُ الْكِرَام آمَنُوا بِهَذِهِ الآيَاتِ.

وَنَحْنُ تَبَعٌ لَهُمْ فِي ذَلِكَ نُؤمِنُ بِهَا وَلاَ نُجَادِلُ فِيهَا وَلاَ نُكَذِّبُهَا، وَلا نَسْتَدِلُّ بِهَا عَلَى بَاطِلٍ، كَمَا يَفْعَلُ أَهْلُ الأَهْوَاءِ، أَمَا قَالَ اللهُ -عَزَّ وَجَلَّ-: ﴿آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ﴾ [البقرة: 285]، فَهَذِهِ صِفَةُ مَدْحٍ لَنَا نَحْنُ الْمُؤْمِنِينَ؛ أَنْ نُؤْمِنَ، وَأَنْ نُسَلِّمَ، وَأَلَّا نُعَارِضَ، وَأَلَّا نُجَادِلَ.

فَبَارَكَ اللهُ فِيكُمْ وَحَفِظَكُمْ مِنْ كُلِّ سُوءٍ احْفَظُوهَا هَذِهِ الْقَوَاعد وَاعْمَلُوا بِهَا، وَاحْذَرُوا مَوَاطِنَ الْفِتَنِ وَأَهْلَهَا، وَآمِنُوا بِمَا أَنزَلَ اللهُ عَلَى رَسُولِه -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-، وَآمِنُوا بِمَا قَالَهُ اللهُ وَرَسُولُهُ -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-، وَاحْذَرُوا الذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِ اللهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ، وَاحْذَرُوا الذِينَ يُكَذِّبُونَ بِشَرْعِ اللهِ وَبِسُنَّةِ رَسُولِ اللهِ -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-.

أَسْأَلُ اللهَ -عَزَّ وَجَلَّ- أَنْ يَنْفَعَنِي وَإِيَّاكُمْ بِمَا سَمِعْنَا، وَأَنْ يَكُونَ حُجَّةً لَنَا لاَ حُجَّةً عَلَيْنَا، وَأَنْ يَجْعَلَنَا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ الْمُوقِنِينَ الصَّادِقِينَ الْمُنِيبِينَ إِلَيْهِ -سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى-، الْبَعِيدِينَ كُلَّ الْبُعْدِ عَنِ الْبِدَعِ وَالضَّلاَلاَتِ وَالْأَهْوَاءِ وَالْفِتَنِ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ.

وَصَلَّى اللهُ وَسَلَّمَ عَلَى نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ، وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ أَجْمَعِينَ.